

الْفَصْلُ الثَّلَاثُ دلائل عظمة القرآن

القرآن أعظم كتاب رآته عين، وسمعته أذن وتآلق بتلاوته لسان، وازداد به يقين وإيمان، وطاب به قلب وجنان.

القرآن هو قول الله وحكمه وأمره، هو رسالة الله إلى خلقه، تكلم الله به حقيقة كما أراد، وحُق لكلام العظيم أن يكون عظيمًا، فهو فوق كل كلام وأعلى من كل بيان، وأظهر من كل حجة أو برهان، هو الحق من الحق إلى الخلق، هو النور من الله والهداية منه لمن أراد الهدى.

إن عظمة القرآن ظاهرة قاهرة، واضحة بينة يدركها كل من كان له عقل وفهم، وإن بلغ ما نصف به القرآن أن نقول عنه كلام الله! إنه كلام العليم الخبير، كلام الملك الحق المبين، وهل يسوغ لذي عقل أن يقارن بين كلام الخالق وكلام المخلوق؟! بين كلام رب العالمين وكلام من خلق من طين؟! بين كلام العليم الحكيم وكلام الظلوم الجهول؟!

إن بلاغة القرآن تتوارى أمامها كل بلاغة، وتذوب عندها كل فصاحة، ويعجز كل بيان، فلقد أوضح الحق وجلاله، واشتمل على العلم وحواه، ورفع الصدق وأعلاه، وأزهق الباطل وأراده، وأذهب الطغيان وواراه. زلزلت آياته عروش الوثنية، ودمغدت بيناته أساطين الجاهلية، وغرست كلماته الحق بالحجة القوية، واستقامت على هداه الأنفس الزكية، وطابت بذكره القلوب التقية، وارتقت به إلى درجات الجنة العلية، ولعظمة القرآن دلائل نذكر شيئاً منها تذكيراً للعاقل وتنبهًا للغافل، والله ربي هو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

من دلائل عظمة القرآن

أولاً - عظمة من تكلم به سبحانه:

إنها كلمة مجلجة مزلزلة، مهيبة عظيمة حينما نقول: هذا كلام الله!! إن كل الكلام يعظم وينبل بقدر عظمة من تكلم به ولذا فإن القرآن أعظم الكلام لأنه كلام الله الذي هو أعظم من كل عظيم وأكبر من كل كبير وأجل من كل جليل، بل هو الذي خلق كل متكلم وكلامه وكل بليغ وبلاغته وكلام الله تعالى صفته ليس مخلوقاً ككلام البشر فكلام المخلوق ضعيف كضعفه قاصر كقصوره ناقص كنقصه.

أما كلام الله فكماله بكمال الله، وعظمته بعظمته سبحانه وبحمده قال الله تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] وَقَالَ الْعَالِيُّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الفتح: ٢٧].

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنی وصفاته العلی وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر خاتم الرسل: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١).

فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ولو جاء أمثالها مدداً وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثمة سبعة أبحر موجودة

(١) رواه مسلم برقم [٤٨٦]، وأبو داود [٨٤٢]، والترمذي [٣٤٩٣] وغيرهم.

محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما في الآيات الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ فليس المراد بقوله بمثله آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم بهم جراً لأنه حصر آيات الله.

قال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً وجعل البحر مداداً وقال الله تعالى: إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام».

وقال قتادة: «قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ ومع البحر سبعة أبحر ما كانت لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه».

وقال الربيع بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد أنزل الله ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ الآية يقول: لو كان البحر مداداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاماً لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحداً لا يستطيع أن يقدره قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول» (١).

ويقول حافظ أحمد حكي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والمقصود أن كلمات الله باقية لا تنفذ أبداً، تامة لا تنقص أبداً وذلك لأن كلامه صفته، وليس من صفاته شيء ينفذ ولذا أخبرنا تعالى أن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلاماً والبحار أضعافها مداداً يكتب بها كلماته لنفذت كلها وكلماته باقية لا تنفذ وذلك لأن الأشجار والبحار مخلوقة والمخلوقات من لازمها الفناء وكلمات الله صفته وليس من صفات الله شيء يفنى، بل هو الباقي بأسمائه وصفاته أزلاً وأبداً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التَّحْوِيلُ: ٨٨]» (٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/٢٠٢).

(٢) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/٢٥٣).

فالقرآن هو كلام الله الذي أنزله ليكون هداية للخلق كافة **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:**
﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾
 [طه: ١١٣]، وقال تعالى: **﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾** [الحج: ٨٩]، وقال
 تعالى: **﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾** [ص: ٢٩]، وقال
 سبحانه: **﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾** [التوبة: ٦]
 والله إنه وصف عظيم مهيب وصف جليل كريم كبير القرآن كلام الله!! فيا له من
 جلال ويا لها من عظمة لا تنتهي لها!!

يقول أحد الفضلاء: «هل طرق المسامع مثل القرآن بيانا وجاذبية؟! هل وقع
 في القلوب مثل القرآن يقينا وهدى؟! هل قرأت العيون مثل القرآن جمالا وإبداعا؟!
 هل ذاقت الأرواح مثل القرآن حلاوة وطلاقة؟! هل هز منابر الدنيا مثل القرآن تأثيرا
 وتمجيذا؟! هل جلجل في النوادي مثل القرآن براءة وإشراقا?!

أيها المتكلمون، بكل لغة المتحدثون بكل لهجة اجمعوا أروع القصائد وأحلى
 الملاحم وأبلغ الخطب وأحسن القصص وأجمل الكلمات ليأتي القرآن بنبعه المتدفق
 ونوره الوهاج وحسنه البديع وتأثيره العجيب فإذا القصائد والملاحم والخطب
 والقصص والكلمات هباءً منثور وعملٌ مبتور لا قيمة ولا روعة ولا حسن ولا جمال،
 لأن من تكلم بالقرآن هو الذي خلق من تكلم بالخطبة، ولأن الذي أحكم القرآن هو
 الذي أوجد كاتب القصة فكيف نجعل كلام المخلوق ككلام الخالق وكتاب الناقص
 مثل كتاب الكامل وقول الغني القوي كقول العاجز الهزيل الضعيف الفقير»^(١).

وجديرٌ أن نذكر في هذا الصدد قول الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ فِي عَقِيدَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ:
 «مذهب أهل السنة وهم السلف الصالح أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً

وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قَالَ الْعَالِي: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فلما أوعد الله تعالى بسقر لمن قال إن هذا إلا قول البشر علمنا وأيقنا أنه كلام خالق البشر ولا يشبه كلام البشر» (١) ..

قَالَ اللَّهُ الْعَالِي: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأًا: ٢٣].

﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾: أي زال الفزع عنها.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم الملائكة قالوا وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال أبو حيان: «تظاهرت الأحاديث عن رسول الله أن قوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة» (٢).

ثانيًا - عظمة من نزل به من عند الله:

قال الله جلا وعلا: ﴿وَلَنُزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشُّعْرَاءُ: ١٩٢-١٩٥﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ١٠٢] والروح الأمين وروح القدس هو أفضل الملائكة وخيرهم وأكرمهم على الله عزَّ وَجَلَّ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العزص [١٦٨] ط: المكتب الإسلامي.

(٢) «فتح المجيد» (١/٣٤٢).

فَإِنَّهُ نَزَلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٩٧﴾، فجبريل هو سيد الملائكة وهو المطاع فيهم وهو قوى على تنفيذ ما أمره الله به، قوى على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، قوى في منع الشياطين من اختلاس الوحي، قوى في منعهم من التخليط والتعريف.

وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو رسول الله من الملائكة الذي اصطفاه الله تعالى على سائر الملائكة كما اصطفى رسولنا محمد ﷺ على سائر البشر وقد وصفه ربنا سبحانه في كتابه بأوصاف كريمة شريفة عظيمة وهذه الأوصاف تجدها في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٢﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١] وكذلك في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٥-٦].

وهذه الأوصاف كما يلي :

- ١- هو رسول أي بين الله تعالى وأنبيائه ورسله.
- ٢- كريم أي ملك شريف حسن الخلق حسن المنظر.
- ٣- قوة أي له قوة عظيمة جداً كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾.
- ٤- ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة عالية رفيعة.
- ٥- ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي في السموات له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى.
- ٦- ﴿أَمِينٍ﴾ وصفه الله بالأمانة وهذه تزكية عظيمة جداً أن يزكي الله عبده ورسوله الملكي جبريل بهذه الأمانة.

ومن أوصاف جبريل العظيمة أن الله تعالى خلق له ستمائة جناح، ومن أوصاف الملائكة أن لهم أجنحة كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، أي منهم

من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله تعالى وجعل له ستمائة جناح كما روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل له ستمائة جناح (١).

وروى البخاري كذلك من حديث أم المؤمنين عائشة رضي عنها قالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم ولكن رأى جبريل في صورته وخلقه ساداً ما بين الأفق» (٢).

ومما يدل على شرف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله تعالى خصّه بأشرف وظيفة وهي السفارة بينه تعالى وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحي إليهم، وسمى الله جبريل الروح الأمين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿الشُّعْرَاءُ: ١٩٢-١٩٤﴾، وسماه الله تعالى روحاً وأضافه الى نفسه سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

قال السعدي: «روحنا» هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتل رؤيته على ما هو عليه (٣)، وسماه الله تعالى روح القدس في غير آية منها وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيْدَتْهُ بُرُوحَ الْقُدُسِ ﴿٨٧﴾﴾، أي قواه الله تعالى بروح القدس وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وتأيدته بروح القدس يدلهم على صدق عيسى فيما جاءهم به.

(١) رواه البخاري برقم [٣٢٣٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٣٤] وقد رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى وهاتان هما المرتان اللتان رأى فيها رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل على صورته الحقيقية وقد كان يأتيه في صورة رحية بن خليفة الكلبي وأتاه في صورة أعرايي كما في حديث عمر بن الخطاب المشهور وفي آخره إنه أتاكم يعلمكم دينكم.

(٣) «تفسير السعدي» ص (٥٦٦) ط: دار ابن الجوزي.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ دعا لحسان بن ثابت الذي كان يدافع وينافح ويكافح المشركين ويمحوهم مدافعاً عن النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم أيده بروح القدس» (١).

وكذلك روى البخاري عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهجهم . أو قال هاجهم وجبريل معك» (٢).

ومما يدل ذلك على فضل جبريل على سائر الملائكة أن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٨٧]، فجبريل من الملائكة أفرده الله بالذكر وقدمه عليهم لشرفه عليهم وفضله العظيم كرمه الله وشرفه به على سائر الملائكة.

قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: الروح الأمين هو جبريل عليه السلام وسُمي روحاً لفضله وتميزه عن الملائكة ولأنه ينزل بالروح من أمر الله عز وجل وهو الوحي . وسُمي بالأمين أو نعته الله بالأمين في قوله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] لأنه مؤتمن على أعظم ما يؤتمن عليه وهو كلام الله عز وجل ووحيه في سماواته (٣).

ثالثاً - عظمة من أنزل عليه القرآن

حين أراد الله العليم الحكيم أن ينزل إلى خلقه أعظم كتبه اختار الله تلك المهمة العظيمة الكبيرة أعظم ملك ليتنزل بهذا القرآن العظيم على قلب أعظم البشر وسيد الخلق كافة رسول الله محمد ﷺ واختار مكة التي هي أطهر بقعة في الأرض وأقدس البلاد وأعظمها لتكون مهبط الوحي ومكاناً لنزول القرآن ومن بعدها المدينة النبوية،

(١) رواه البخاري برقم [٦١٥٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٦١٥٣].

(٣) «جامع شروح الطحاوية» (١/٧٢٤ ط) دار: ابن الجوزي

وكذلك اختار الله من الزمان أشرف زمان وأكرمه وهو ليلة القدر من شهر رمضان، فأحاط الله كتابه العظيم بهالة من العظمة والجلال لم ولن تكون لكتاب غير القرآن، ودعونا نتكلم عن عظمة المصطفى ﷺ فوالله ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من رسول الله محمد ﷺ هذا هو الرسول الذي حقق أكمل العبودية لله جل جلاله. هذا هو المصطفى خير من وحّد الله وعبد الله. خير لسان دعا إلى الله لسانه وخير قلبه نبض بحب الله قلب وخير جبهة سجدت لله جبهة نبيه ومصطفاه. هذا هو رسول الله الصديق في بهائه، والنبيل والكمال في صفائه، والشمس التي بددت ظلام الكفر والجهل، والنور الذي اهتدى به السائرون والقدوة الصادقة الكاملة التي اقتدي بها المفلحون المهتدون هذا هو رسول الله محمد الذي نال قمة العظمة البشرية هذا هو النبي الإمام الأعظم الذي أرسل إلى الخلق كافة قال الله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الإنف: ١٥٨] وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

بل لقد أخذ الله العهد والميثاق على كل الأنبياء، بلا استثناء، أنه إذا بعث فيهم محمد ﷺ وأدرك أحدهم زمانه أن يؤمن به ويتبعه، قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنعام: ٨١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون» (١).

(١) رواه البخاري برقم [٢٩٧٧]، ومسلم برقم [٥٣٢].

وتأمل كيف شرف الله رسوله في خطابه حيث نادى الله الأنبياء بأسمائهم «يا آدم»
«يا نوح»، ولما وجه رب الأرباب الخطاب إلى رسوله ومصطفاه قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾،
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، ولم يرد في القرآن قط يا محمد .

وكذلك فإن ربنا تبارك وتعالى زكى رسوله ومدحه وأثنى عليه كما في قوله
تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣-٥].

وكذلك شرح الله له صدره ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره وجعل الذل والصغار
على من خالف أمره، فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشخ: ١-٤].

قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب
صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

ومما يشير الى عظمة هذا النبي الكريم وفضله العظيم أن جعل الله نسبه أشرف
نسب وبيته أطهر بيت ، فهو خلاصة الطهر في هذا النسب الزكي الكريم كما روى
مسلم والترمذي عن واثلة بن الأسقع رحمته الله قال سمعت رسول الله صلوات الله عليه وسلم
يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى
من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» (١) .

وهو سيد الأولين والآخرين وصاحب الشفاعة العظمى يوم الدين وأول من
ينشق عنه القبر وأول من يدخل الجنة صلوات الله عليه وسلم روي مسلم وغيره من حديث
أبي هريرة رحمته الله أن النبي صلوات الله عليه وسلم قال «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من
ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» (٢) قال الإمام النووي رحمته الله: قال الهروي:

(١) رواه مسلم برقم [٢٢٧٨]، وأبو داود برقم [٤٦٧٣].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٢٧٦]، والترمذي برقم [٣٦١٥].

السيد هو الذي يفوق قومه في الخير وقال غيره: هو الذي يفرع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم. وأما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يوم القيامة» مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفر وزعماء المشركين، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» مع أن الملك لله سبحانه قبل ذلك لكن كان في الدنيا من يدعى الملك أو من يضاف إليه مجازًا فانقطع كل ذلك في الآخرة قال العلماء: وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا سيد ولد آدم» لم يقله فخراً، بل صرح بنفي الفخر في غير مسلم في الحديث المشهور «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» إنما قاله لوجهين:

أحدهما- امثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

والثاني- أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ويوقروه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى، وهذا الحديث دليل لتفضيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخلق كلهم لأن مذهب أهل السنة أن الأدميين أفضل من الملائكة وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الأدميين وغيرهم (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرب باب الجنة» (٢) وعند مسلم رضي الله عنه أيضاً أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد» فيقول محمد: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» (٣) بل إن ربنا جل جلاله كرم رسوله محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعل مكانه في الجنة أعلى مكان وأعظم وأقرب مكان إلى

(١) «شرح النووي على مسلم» (٨/ ٤٢).

(٢) رواه مسلم برقم [١٩٦].

(٣) رواه مسلم برقم [١٩٧].

عرش الرحمن حيث أتى الله رسوله الوسيلة وهي أعلى مكانة ومنزلة في الجنة لا يستحقها ولا ينالها ولا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وهو المصطفى رسول الله محمد ﷺ والحديث في ذلك رواه البخاري وغيره من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة» (١) وعند مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلي الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله فأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» (٢).

وهو بأبي وأمي وروحي ونفسي ﷺ خاتم الأنبياء ليس بعده نبي فهو مسك ختامهم ولبنة تامهم كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٣) وقد ظهرت فضيلة المصطفى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بتقدمه عليهم إماماً، وعلوه فوق الجميع مقاماً حتى جاوز السبع الطباق إلى سدرة المنتهي إلى حيث شاء الله عزَّ وجلَّ واختص ﷺ بأشياء أخرى في سماحة شريعته ووضع الآصار

(١) رواه البخاري برقم [٦١٤]، وأبو داود برقم [٥٢٩] والترمذي برقم [٢١١] والنسائي (٢/٢٧).

(٢) رواه مسلم برقم [٣٨٤] وأبو داود برقم [٥٢٣] والترمذي برقم [٣٦٩٤] والنسائي (٢/٢٥).

(٣) رواه البخاري برقم [٣٥٣٥]، ومسلم برقم [٢٢٨٦].

عن أمته وكونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يستفتح باب الجنة، وأول من يدخلها من الأمم أمته، وله الحوض المورود وهو الكوثر، وله اللواء المعقود وهو لواء الحمد تحته آدم فمن دونه، وله المقام المحمود وهي الشفاعة العظمى ويرغب إليه كل الخلائق حتى إبراهيم الخليل، وأول من يجوز الصراط هو النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمه (١) ومقاماته عليّة لا ينالها في الخلق غيره ولا يدركها من البشر سواه، ولا يصل إلى هذه المنزلة إلا رسول الله ومصطفاه .

ولقد أوتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعجزات الباهرة والأدلة الظاهرة ما لم يؤتاه رسول من قبله كرحلة الإسراء والمعراج وهذا القرآن العظيم الذي هو حجة على الخلق مادام فيها أحياء كذلك نبع الماء من بين أصابعه وسلم الحجر عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبكي الجذع حيناً لفرقه وانشق القمر تأييداً له وآياته ومعجزاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة صنّف فيها العلماء، بل لقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ما أوتي نبي من الأنبياء معجزة إلا وأوتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلها فقيل له: إن عيسى أوتي إحياء الموتى فقال: ونبينا أوتي حنين الجذع وهذه أكبر من تلك.

إن المرء يقف وقفة إجلال هيبية حينما يريد أن يتكلم عن هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ماذا يمكن أن يقال بعد أن مدحه ربه وأثنى عليه وشرفه بما لم يشرف به أحداً من الخلق؟ ماذا يمكن أن يقال بعد آيات محكمة أظهرت فضله وكرامته وجلال منزله؟ ماذا يمكن أن يقال وقد نطقت السنة المشرفة بفضله وعظمته؟!

لقد اختار الله خير خلقه لينال كرامة نزول خير كتبه عليه وهذا من حكمة الحكيم وتدبير العزيز الرحيم فاللهم لك الحمد أن جعلت كتابنا خير كتاب ورسولنا خير رسول وأمتنا خير أمة.

رابعاً - عظمة الزمان الذي نزل فيه القرآن.

لقد اختار الله جل جلاله أشرف زمان ليكون فيه نزول القرآن وذلك في شهر هو أعظم الشهور وأفضلها وفي ليلة هي درة التاج في هذا الشهر الكريم الفضيل إنه شهر رمضان واللييلة ليلة القدر يقول الملك العلي الأعلى جل وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وكذلك قال الله الرب العظيم الحكيم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣-٤]، وقبل هذه الآية أقسم الله جل جلاله وحلف بالقرآن على إنزال القرآن فقال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذا قسم بالقرآن فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ﴾، أي: كثيرة الخير وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر فأنزل أفضل الكلام في أفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قومًا عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيجعل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ «فيها» أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ حكم الله به (١).

ولهذا أفرد كلامًا مختصرًا عن فضل رمضان على حدة ثم أتبع ذلك بفضل ليلة القدر. لقد أنزل القرآن المبارك في شهر رمضان المبارك ليربي الله به أمة مباركة خيرة وفي أول ليلة من رمضان تفتح أبواب السماء وتغلق أبواب النيران وتسلسل وتقيد الشياطين كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين» (٢) وعند الترمذي وابن ماجه وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص (٩١٥-٩١٦) ط: دار ابن الجوري.

(٢) رواه البخاري برقم [١٨٩٩] ومسلم برقم [١٠٧٩].

كانت أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة» (١) وفي رمضان مغفرة الذنوب وفرض المغفرة كثيرة غزيرة عظيمة في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رقي المنبر فقال: «أمين. آمين» قيل له: يا رسول الله، ما كنت تصنع هذا؟ فقال: «قال لي جبريل: رغم أنف عبد أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة، قلت: آمين. ثم قال: رغم أنف عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له قلت: «أمين» ثم قال: رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين» (٣) وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما أجتنب الكبائر» (٤).

وفي رمضان فرض الله الصيام لتكون الثمرة الإيمانية العالية هي تحقق التقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وفيه شرع الله وأوجب صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، وفيه شرع الله القيام في الليل جماعة ليكون في ذلك مغفرة ما تقدم من الذنوب وفيه شرع الله الاعتكاف في العشرة الأواخر وفيه تستحب العمرة وتكون بأجر حجة مع النبي ﷺ وفيه الخيرات والذكر والدعوات وقراءة القرآن فهو شهر مبارك اختاره الله واصطفاه من بين الشهور ليكون أفضلها ولينزل فيه أفضل كتبه في أفضل ليلة نزل القرآن وهذا ما نذكره فيما يلي.

(١) رواه الترمذي [٦٨٢]، وابن ماجه [١٦٤٢] وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٧٥٩].

(٢) رواه البخاري برقم [١٩٠١] ومسلم برقم [٧٠٩].

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٥٤٥]، والبخاري في «الأدب المفرد» [٦٤٦]، وصححه الألباني في «الأداء» رقم [٦].

(٤) رواه مسلم برقم [٢٣٣].

فضل ليلة القدر على سائر الليالي:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَلَ الْمَلَكُ فِيهَا وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعَ الْفَجْرُ ﴿٥﴾

[الفتاوى: ١-٥]، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يفخر تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر وهي الليلة المباركة التي قال عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر من شهر رمضان كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها الله بإنزال القرآن العظيم فيها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ (١).

ويقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله تعالى ابتداءً بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكراً وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله تعالى ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة ثم فخم شأنها وعظم مقدارها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ أَيِّ فِئَةٍ شَأْنُهَا جَلِيلٌ وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ ﴿٣﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٤﴾ أَيُّ تَعَادَلٍ مِنْ فَضْلِهَا أَلْفِ شَهْرٍ فَالْعَمَلُ الَّذِي يَقَعُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ خَالِيَةً مِنْهَا مِمَّا تَتَحَيَّرُ فِيهِ الْأَلْبَابُ وَتَنْدَهَشُ لَهُ الْعُقُولُ حَيْثُ مِنْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الضَّعِيفَةِ الْقُوَّةُ وَالْقُوَّةُ بَلِيْلَةٌ يَكُونُ فِيهَا الْعَمَلُ يُقَابَلُ وَيَزِيدُ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢﴾ قال الشيخ أبو عبد الله مصطفى العدوي حفظه الله انتظمت السورة جملة فضائل لهذه الليلة: أحدها أن الله عزَّ وجلَّ أنزل القرآن في هذه الليلة .

(١) «تفسير القرآن العظيم».

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للعلامة السعدي ص [١٠٩٨].

الثاني- أن الله عَزَّ وَجَلَّ عظم شأنها بذكرها ويقوله: ﴿وَمَا آذَرْنَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾

الثالث- أن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

الرابع- أن الملائكة ومعهم جبريل تنزل في هذه الليلة .

الخامس- أن الأمن والسلام يحل في هذه الليلة على أهل الإيوان وتسليم الملائكة

يتوالى عليهم فيها ^(١) ومن فضائل هذه الليلة المباركة أن من قامها غفرت ذنوبه

المتقدمة كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم : «من قام

ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ^(٢) ولعظيم فضلها وشرفها كان

النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشرة الأواخر التماساً لها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من

ألف شهر من حرمها فقد حرم الخير كله ولا يحرم خيرها إلا محروم» ^(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتاكم شهر رمضان شهر مبارك فرض الله عليكم

صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين، لله

فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِم خيرها فقد حُرِم» ^(٤) قال أبو بكر الوراق: سُميت

ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر على لسان ملك ذي قدر على رسول ذي قدر

وعلى أمة ذات قدر.

وقال الزهري: سميت ليلة القدر لعظم قدرها وشرفها من قولهم لفلان قدر أي

شرف ومنزلة.

(١) «التسهيل لتأويل التنزيل» جزء عم (٢/٤٨٨/٤٤٩ ط) ماجد عسيري.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٠١٤] ومسلم برقم [٧٥٩].

(٣) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم [٩٩٠].

(٤) رواه النسائي والبيهقي وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم [٩٨٩].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: قال العلماء: وسميت ليلة القدر لما يكتب فيها الملائكة من الأقدار والأرزاق والآجال التي تكون في تلك السنة لقوله تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَيْحَ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ معناها يظهر للملائكة ما سيكون فيها يأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم وكل ذلك مما سبق علم الله تعالى به وتقديره له (١).

ولعظم قدر هذه الليلة حث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ عَلَى تَحْرِيمِهَا وَطَلْبِهَا وَالْحِرْصِ عَلَى قِيَامِهَا كَمَا تَثَبَتَ ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ مِنْ حَدِيثٍ وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْتَمَسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ» (٢) إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَشْرَفُ اللَّيَالِي وَأَعْظَمُهَا لِذَا اخْتَارَهَا اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ مِيقَاتًا لِنَزُولِ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ الْمُبَارَكِ.

خامساً - عظمة المكان الذي نزل به القرآن:

لقد اصطفى الله العليم الخبير سبحانه وتعالى أطهر بقعة وأقدس البلاد وأفضلها لتكون محلاً لنزول القرآن عليها. وخير بلاد الله وأحبها إليه هي مكة سماها الله تعالى في كتابه ﴿بَيْكَةً﴾، ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾، ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، والبلدة ولها أسماء أخرى تدل على شرفها وجليل قدرها عند الله وعند عباده.

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي بها غير مكة. وليس على وجه البسيطة بلد يجب على المسلم في صلته أن يتوجه إليه في أي مكان كان غير هذا البلد الأمين كما قال رب العالمين في كتابه المبين:

(١) «شرح صحيح مسلم للنووي» (٤/ ٣٢٠).

(٢) رواه البخاري برقم [٢٠١٧]، ومسلم برقم [٩٦١١].

﴿ قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فمكة قبله المسلمين أحياء وأمواتاً.

وهي أصل القرى وأم القرى ومن هم فيها بالسيئات عوقب وإن لم يفعل كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِدِ بِظُلْمٍ نُدُقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥] ومما يدل على عظمة هذا البلد وجليل قدره أن أقسم الله جلَّ جلاله به فقال: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾.

[التين: ٩٦]

وفي مكة أول مسجد وضع على الأرض وهو أفضل المساجد والصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَىٰ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيكَّةً مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿ [التين: ٩٦]، وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» (١).

ومكة هي البلد الحرام ومن جملة تحريمها تحريم صيدها وتغييره من أوكاره وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلي ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاها» قال العباس: يا رسول الله الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم قال: «الإذخر» (٢)، ولا يختلي خلاها:

(١) رواه البخاري برقم [٣٣٦٦] ومسلم برقم [٥٢٠].

(٢) رواه البخاري برقم [١٨٣٤].

الخلا هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشاشه ومكة هو البلد الآمن كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: ٩٦] وذلك يعني أن حرم مكة إذا دخله الخائف آمن كل سوء كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يستطيع قتله حتى يخرج خارج الحرم.

وفي هذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخِطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: ٦٧] قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْفَصْح: ٥٧] وامتن الله عزَّ وجلَّ على قريش كذلك بهذه النعمة فقال أيضًا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [التَّيْنِ: ٣-٤].

وقد نهى النبي ﷺ عن حمل السلاح بمكة إلا لحاجة كما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح ^(١) قال النووي رحمته الله: هذا النهي إذا لم تكن حاجة فإن كانت جاز هذا مذهبنا ومذهب الجماهير، قال القاضي عياض: هذا محمول عند أهل العلم على حمل السلاح لغير ضرورة ولا حاجة فإن كانت جاز ^(٢).

ومكة أحب بلاد الله إلى الله وخير أرض الله فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» ^(٣).

(١) رواه مسلم برقم [١٣٥٦].

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٤١/٥).

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٩٢٩]، وأحمد (٣٠٥/٤) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٨١/٣)، والألباني في «المشكاة»

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أطيبك من بلدة وأحبك إلى ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» (١).

ووجود الكعبة في مكة أمان للناس وبقاء للخير في الأمة ما بقيت قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَبَاءَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، يقول السعدي رحمته الله يخبر تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم وديناهم فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزراهم وتحصل لهم بقصده العطايا الجزيلة والإحسان الكثير وبسببه تنفق الأموال وتقتحم من أجله الأهوال ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعرفون ويستعين بعضهم ببعض ويتشاورون على المصالح العامة وتنعد بينهم في مصالحهم الدينية والدينية قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨]، ومن أجل كون البيت قيامًا للناس قال من قال من العلماء إن حج البيت فرض كفاية في كل سنة فلو ترك الناس حجة لأثم كل قادر. بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم وقامت القيامة (٢).

وقال ابن حجر: قيامًا أي قوامًا وأنها ما دامت موجودة فالدين قائم.

وعن عطاء قال: قيامًا للناس لو تركوه عامًا لم ينظروا أن يهلكوا.

ومكة محروسة من الدجال وكذلك المدينة النبوية محروسة منه كما في صحيح مسلم من قول المسيح الدجال الذي وجده تميم الداري ومن معه في جزيرة في البحر قال: وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاها (٣).

(١) رواه الترمذي برقم [٣٩٢٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٥٥٣٦]، وفي «المشكاة» برقم [٧٢٧٤].

(٢) «تفسير السعدي» [٢٦٠].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٤٢].

يحسن إلى أرض الحجاز فؤادي
ولي أمل ما يزال يسموا بهمتي
ويحدوا اشتياقي نحو مكة حادي
إلى البلدة الغراء خير بلاد
عباد هم لله خير عباد
بها كعبة الله التي طاف حولها

ويلى مكة في الفضل المدينة المنورة وقد نزل بها القرآن ، كذلك فالمكي ما نزل بمكة والمدنى ما نزل بالمدينة وإن كان التحقيق في ذلك أن القرآن المكي ما أنزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعد الهجرة، والشاهد نزول القرآن بالمدينة كما نزل بمكة والمدينة بلد حرام كما عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوتُ في صاعها ومدنها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (١) .

وقال رسول الله ﷺ «إني أحرم ما بين لا بتي المدينة أن يقطع عضاها أو يقتل صيدها» وقال «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحدٌ على لأوائها وجهدها إلا كنتُ شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» (٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة» (٣) .

وقال ﷺ: «المدينة حرم، فمن أحدث فيه حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (٤) .

(١) رواه مسلم برقم [١٣٦٠].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٦٣].

(٣) رواه البخاري برقم [١٨٨٥]، ومسلم برقم [١٣٦٩].

(٤) رواه مسلم برقم [١٣٧١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» (١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق همته المدينة حتى ينزل دبر أحد ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك» (٢).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان» (٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر منافق» (٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء» (٥) هذا اللفظ رواية البخاري وعند مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملك في الماء» (٦).

وإلى المدينة يأوي الإيمان ويستقر الإيمان في كل وقت وزمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» (٧).

(١) رواه البخاري برقم [١٨٨٠] ومسلم برقم [١٣٧٩].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٨٠].

(٣) رواه البخاري برقم [١٨٧٩].

(٤) رواه البخاري برقم [١٨٨١].

(٥) رواه البخاري برقم [١٨٧٧].

(٦) رواه مسلم برقم [١٣٨٧].

(٧) رواه البخاري برقم [١٨٧٦].

وفي المدينة روضة دائمة باقية من رياض الجنة كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» (١).

والصلاة في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة بألف صلاة فيما سواه، كما أن الصلاة في المسجد الحرام في مكة بمائة ألف صلاة، قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا» (٣).

في مكة والمدينة نزل القرآن وفيما ذكر من فضلها برهان وبيان أنها أفضل من كل مكان، ولهذا الطهر والعظمة والجلال والقدسية والبركة في الأرض اختار الله هذين البلدين ليكون محلاً لنزول كتابه الكريم على نبيه وخاتم رسله محمد ﷺ وليس على وجه الأرض بلد أفضل من هاتين الدرتين الخالدين في العالمين يتجدد فضلها لكل جيل ويتوارث المسلمون جلال المكان والمنزلة لهذين البلدين.

سادساً - عظمة اللغة التي نزل بها القرآن؛

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤]، هكذا كانت حكمة الملك العليم جل جلاله أن يرسل كل نبي بلغة القوم الذين أرسل

(١) رواه البخاري برقم [١٩٦] ومسلم برقم [١٣٩١].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٩٥].

(٣) رواه ابن ماجه برقم [١٤٠٦]، وأحمد في «المسند» (٣/٣٤٣) والبيهقي وحسنه النووي كما في «شرح صحيح مسلم» (١٧٩/٥) ط: دار الحديث وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم [١١٧٢].

فيهم. ولقد كان العرب فصحاء بلغاء. أرباب لغة عميقة وبيان خلاب جذب وقالوا بلغتهم شعراً ونثراً لم يعرف نظير في التفوق في ذلك الحين، وبرع العرب في اللغة براعة عظيمة عجيبة، ومن طالع الأدب الجاهلي من شعر ونثر رأى قوة واقتداراً عجبياً في امتلاك ناصية اللغة، والتعبير ببلاغة وبيان عن مشاهد الحياة وشواهدا وجاء القرآن بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأكملها لكنه أذهل كل فصيح وأسكت كل بليغ وأعجز كل شاعر أو أديب، لأنه كلام من خلق وبرأ، كلام الحكيم العليم وفضل كلامه على سائر الكلام كفضله سبحانه على خلقه.

جاء القرآن عربياً بلغة العرب وهي اللغة القوية الحية الباسلة الباقية قال الله تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧].

وقال جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ يقول السعدي رحمه الله: «لسان عربي» وهو أفضل الألسنة بلغة من بعث إليهم وياشر دعوتهم أصلاً اللسان البين الواضح، وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم فإنه أفضل الكتب نزل به أفضل الملائكة على أفضل الخلق، على أفضل بضعة منه وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو اللسان العربي المبين (١).

وهذه اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أوسع اللغات مدى وأبسطها لساناً وأبينها بياناً وأعظمها بلاغة يقول الإمام الشافعي رحمه الله: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه غير نبي ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه وللعلم به -

أي بلسان العرب - عند العرب كالعلم بالسنة عن أهل الفقه لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها شيء فإذا جمع عامة أهل العلم بها أتى السنن وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه منها ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً على غيرها (١).

إن اللغة العربية من طواعية التعبير، وعضوبة المنطق، وسعة البيان، وغزارة الألفاظ، ورشاقة اللفظ ما ليس لغيرها من لغات العالم، إنها لغة جزلة رصينة، سهلة فخمة سامقة شائخة يقول الدكتور فتحي جمعة حفظه الله: العربية كما يشهد لها المنصفون لغة تملك كل مقومات التعبير عن أدق المعاني وأعمق الأفكار في ثلاثة العناصر التي تتكون منها اللغات أعنى الأصوات والمفردات، والجمل والأساليب.

فأصواتها ممثلة في نظام متكامل يستوعب أكثر الأصوات التي يمكن أن ينتجها جهاز النطق الإنساني، فليس فيها مخرج صوتي واحد ناقص، ومن هنا اشتملت على مجموعات صوتية لا توجد بكمالها إلا فيها وهي أصوات الحلق وأصوات الإطباق فهي كما قال العقاد رحمه الله لغة إنسانية ناطقة يستخدم فيها جهاز النطق الحي أحسن استخدام أما المفردات فهي غنية غنى واسعاً، وقد استطاع العرب القدماء أن يصنعوا للفروق الدقيقة بين المعاني ألفاظاً تعبر عنها ونزل عليها ويكفي أن نقلب النظر في واحد من كتب فقه اللغة العربية في التراث القديم كالغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ومبادئ اللغة للإسكافي، وفقه اللغة للثعالبي، والمخصص لابن سيده لنقف على صورة شاملة للعربية كيف مثلت حياة العرب أصدق تمثيل، فتضمنت تضمناً دقيقاً مستوعباً للموجودات. يقول الدكتور محمد المبارك العالم اللغوي السوري: إن مفردات اللغة العربية تدل على أن العرب صنف الوجود تضييفاً شاملاً دقيقاً منطقياً يدعو إلى الدهشة والعجب، ويدل على مستوى فكري فلما وصلت إليه الأمم في مثل هذا التطور من تاريخ حياتها.

(١) انظر «الرسالة» للشافعي ص [٤٠] تحقيق أحمد شاكر.

وفي مجال التركيب نرى ميزتين ظاهرتين نشير إليها ولا نحيط بها أولاهما هي الإعراب الذي احتفظت العربية وحدها دون سائر اللغات بكل مظاهره حتى اليوم والذين يعرفون العربية ويمسنون ذوقها هم الذين يعلمون علم اليقين أن ظاهرة الإعراب تمنح المتكلم بهذه اللغة طاقة هائلة على تنويع كلامه وتعريف جهاته ولأن حركات الإعراب دوال المعاني فهو يقدم ويؤخر، ويجور ويغير ويبادل بين مواقع التركيب آمناً مطمئناً معانية لن تتأثر بشيء من ذلك لأن علامات الإعراب تؤازره وتعينه.

والميزة الأخرى هي بناء الجملة: يقوم بناء الجملة العربية كما نعلم على صورتين

رئيسيتين:

✽ الجملة الفعلية: فعل + اسم (فاعل) انتصر خالد.

✽ الجملة الاسمية:

(أ) اسم + اسم مشتق، خالد قائد ممتصر.

(ب) اسم + اسم جامد، خالد أسد.

(ج) اسم + فعل، خالد قاد الجيش.

ومعنى أن في العربية صوراً أربعاً لبناء الجملة تقابلها واحدة تقريباً في اللغات الأوروبية، وفي ذلك بغير شك توسعة تعطي مزيداً من القدرة التعبيرية في مجالات التعبير التي تستخدم فيها اللغة.

هذا إلى صفات نوعية يتميز بها الشكل العام للأساليب في العربية لعل من أهمها إلى الإيجاز وتفضيله واعتباره جوهر البلاغة ومناط المهارة في التعبير فالبلاغة الإيجاز كما يقال ولهذا برع العرب فيه ونوعوا ضرابه فكانت لهم منه آثار رائعة وحكم بالغة على نحو لا نجد مثله في أكثر اللغات (١).

ولأعداء العربية نقل كلامًا من كلام الخصوم المنصفين الذين نطقوا بالحق وإن كانوا له أعداء .

يقول المستشرق أدبيري: إن اللغة العربية لغة حية وحضارة العرب هي حضارة مستمرة فهي حضارة الأمس واليوم والغد، وعن طريق العرب عرفت أوروبا الحضارة وحين كانت (أوروبا) تغط في سباتها العميق كان العرب يصنعون الحضارات. والحق أن اللغة العربية حضارية بكل ما تحمله الكلمة من معني (١) .

ويقول أرنست رينان المستشرق الفرنسي الكبير:

من أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال لدرجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، وحتى إنها لم يعرف في أطوار حياتها طفوله ولا شيخوخة ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُباري، ولا نعلم شيئاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقية حافظه لكيانها من كل شائبة (٢) .

ويقول أحد المستشرقين عن هذه اللغة: إنها ولدت كاملة الجمال واحتفظت بجمالها وكما لها مع تعاقب الأزمان وتطاول الخطوب (٣) .

هكذا نطق الخصوم والأمثلة كثيرة ولسنا في حاجة على أن ندلل على رصانة العربية وقوتها بكلام الأعاجم يكفيها فخراً أن يختارها الله لتكون سيدة اللغات ووعاء الإسلام، ولغة الكتاب الخاتم المهيمن على كل ما سبقه من كتب سماوية، ومن درس

(١) تقرير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة نقلاً عن السابق ص[٩٢].

(٢) دراسات في العربية وتاريخ للإمام محمد الخضر حسين ص[١٩] نقلاً عن السابق ص[١١].

(٣) السابق نفس الصفحة.

اللغات وله علم بها تبين له قوة العربية وجزالتها وسعتها وبلاغتها وتفوقها وتقدمها على كل اللغات إن الإنجليزية والفرنسية مثلاً لا تعرف المثني وإنما عندهم إما مفرد وإما جمع، وكذلك تنفرد العربية بصفات وإيجازات وتشبيهات بلاغية لا تستوعبها لغة أخرى يقول العقاد: واللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية والغربية فلا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراعى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراعى أطوار المجتمع العربي من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع وأسلوب المجاز^(١).

يقول الدكتور المقدم حفظه الله: إن لغتنا ليست مجرد لغة قومية لكنها لغة دينية تجمع حولها المسلمين عرباً وعجمًا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: اللغة العربية من الدين، ومفرقتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان من إلا بفهم العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقال المرتضى: من أبغض اللسان العربي أداه بغضه إلى بغض القرآن وسنة الرسول ﷺ وذلك كفر صراح وهو الشقاء الباقي نسأل الله العفو^(٢).

سابعاً - تضرد القرآن بالبقاء والكمال:

لقد مر من عمر هذا الزمان على نزول هذا القرآن على رسول الله محمد ﷺ أربعة عشر قرناً واندثرت فيها أجيال، وتبدلت فيها أحوال، وتتابع خطوب وأهوال، وبادت فيها أمم، وانمحت فيها حضارات وتبدلت فيها المعالم والآثار، وما بقي شيء على حاله الذي كان غير هذا القرآن. بقي القرآن هو القرآن في عظمته وروعته، في كماله وجلاله. وبقي محفوظاً من أي تبديل، معصوماً من التغيرات لم ينقص منه حرف أو كلمة

(١) «اللغة الشاعرة» للعقاد ص [٧١].

(٢) «الهُبُوبَةُ الإِسْلَامِيَّة» ص [٦٤] ط: دار ابن الجوزي.

ولم يزد فيه حرف أو كلمة ولم تغب منه جملة أو تقدم كلمة على أخرى أو حرف على آخر فالقرآن الذي صلى به رسول الله ﷺ وتعبد به لربه ودعا به أصحابه وجمعهم عليه هو ذات القرآن الذي نتلوه اليوم ونقرؤه بنفس الحروف والمعاني والكلمات، بل بنفس الطريقة والكيفية التي قرأ بها رسول الله ﷺ ومن شاء أن يستيقن من ذلك فليطالع علم التجويد الذي توارثه أفاضل العلماء عن إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وغاية هذا العلم صيانة اللسان عن اللحن والخطأ في تلاوة كلام الله تعالى.

نعم نقل القرآن من جيل إلى جيل يحمله من كل جيل الأفضل منهم أولئك يوفقون ويؤهلون لحمل رسالة الله إلى خلقه . وصل القرآن إلينا ناصعاً قوياً كأنها نزل من السماء الآن يخاطب كل أحد ويصلح كل خلل، ويهدي كل ضال، ويصدع كل معاند، ويسحق كل كافر جاحد لقد بقي القرآن معصوماً محفوظاً لأن الذي تكفل بحفظه وبقائه هو الله جل جلاله ووعد الحق وقوله الصدق وأمره هو النافذ المتحقق ولو اجتمع كل الخلق على خلافه ﴿ وَاللَّهُ عَالِمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [المجز: ٩] . الله هو الذي أنزله، وهو الذي تولى حفظه، وهو الذي تكلم به، وهو الذي وعد ببقائه، ولا معقب لحكم الله ولا مضاد لأمره، ولا منازع له جل جلاله، ويقول الإمام الطبري عليه رحمة ربنا العلي: يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ وهو القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزداد فيه باطل ما ليس فيه أو ينقص منه ما هو من أحكامه وحدوده وفرائضه (١) .

(١) «جامع البيان في تأويل أي القرآن» للطبري (١٤/٧ ط) مصطفى الحلي.

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أن يزداد فيه أو ينقص منه قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً وقال في غيره «بما استحفظوا» فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا (١).

وساق القرطبي بسنده عن يحيى بن أكثم قال: «كان للمأمون وهو أمير إذا ذاك مجلس نظر فدخل في جملة الناس رجلٌ يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة. قال فتكلم فأحسن الكلام والعبارة قال: فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له إسرائيلى؟ قال: نعم، قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع ووعدته فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: أأست صاحبنا بالأمس؟ قال: بلى قال: فما سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط فعمدتُ إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فأشيرت منى. وعمدت إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشترت منى. وعمدت إلى القرآن فعملتُ ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججتُ تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرتُ له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل قال قالت في أي موضع؟ قال: في قوله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: «بما استحفظوا من كتاب الله» فجعل حفظه إليهم فضاع وقال عزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الْحَجَرِ: ٩]، فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع (٢).

(١) «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي (٥/٣٧٢٩) دار الغد العربي.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٣٧٢٩ - ٣٧٣٠).

نعم رغم العداء الشديد، والكييد المرید، والمكر العنيد من أمم كافرة حاولت بكل إمكانياتها وطاقاتها أن تحموا القرآن، فلم تفلح حاول أعداء كثيرون تغيير شيء في القرآن، فدحروا وانقلبوا صاغرين.

كان القرآن عدوهم الأول لأنهم يعلمون قوته وتأثيره العظيم على المسلمين. لذلك لم يأل الحاقدين على الإسلام جهداً في حرب القرآن لكن كيدهم كان في تباب، ومكرهم عاد على أنفسهم، وغلبوا وعادوا داخرين خاسئين وبقي كلام رب العالمين خالداً هادياً للمهتدين ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين سبحانه من أنزله وأحكمه! ما أجله وما أعظمه!

نعم لقد بقي القرآن هو القرآن برغم الخصومات الشديدة، والمؤتمرات العنيدة والمكر المتصل، والمحاولات المستميتة التي تهدف في كل يوم إلى طمس معالم القرآن، ومحوه من الوجود ولكن أنى للأفواه كلها ولو كره الكفرون ﴿الصَّفَكُ: ٨﴾، إنها عداوة دائمة دائبة حقودة مغرضة تبذل فيها الأموال والطاقات والعقول والأوقات لتصد عن سبيل الله وتصرف عن الهدى ولكن ربك بالمرصاد فكلما جاء غر سفيه ليتشدد بكلمات من فيه سقط قدره وبان عجزه وعاد كيده إلى نحره ونقل إلى مزبلة التاريخ ودائرة النسيان ثم يبقى القرآن هو القرآن.

نعم إخواني العداوة للقرآن وللإسلام شديدة لئيمة من يوم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فَصَّلَتْ: ٢٨].

ويوم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الْفُرْقَان: ٤]،
ويوم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الْبَنَاءُ: ٢٤] ثم جاء على ذات الدرب الخبيث جنود وأتباع يسرون على نفس الخطأ ويردون تلك الترهات والسفاهات

بالسنتهم وقد علمت قلوبهم أنه الحق ولكنه العناد والزيغ والإلحاد الذي أعمى القلوب وأغشى الأبصار وهذه أقوالهم تنبئ عن خبثهم - يقبول الحاكم الفرنسي في الجزائر أيام الاحتلال: إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية.

ويقول وليم جيفورد: متى تواری القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريقة الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه.

❖ ويقول اللورد كرومر: جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن، والكعبة والأزهر.

❖ ويقول جون تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه بأن يعلم هؤلاء الناس يعني المسلمين - أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحاً.

ويقول جلادستون وزير المستعمرات البريطانية سنة ١٨٩٥ ثم رئيس الوزراء بعد ذلك يقول: لن تحقق بريطانيا شيئاً من غاياتها في العرب إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب. أخرجوا سر هذا الكتاب القرآن من بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود. ❖ وقال أيضاً: مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا تكون هي نفسها في أمان.

❖ ويقول مرد خاي إلیاهو مخاطباً مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدر العرب والمسلمين كتاباً يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! على حكام العرب أن يختاروا إما القرآن وأما السلام معنا.

هكذا قالوا وبئس ما قالوا وقبح الله ما قالوا ولعنوا بما قالوا ولا زال أذیالهم ينعقون ويقولون ويرددون ويدرسون ويتقدون وهم في طغيانهم يعمهون وفي ضلالهم سادرون ❖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿الأنجاء: ١٢٣﴾ مهما حاولوا

ودبروا وخططوا وسطروا، وفكروا وقدروا فإن كيدهم في تباب وسعيهم في خراب
ومأواهم في الآخرة سوء العذاب ومن قبل ذلك في الدنيا حسرة وخسار.

نعم بقي القرآن هو القرآن رغم كيدهم وافترائهم وكذبهم، فلن تستطيع أفواه
الخلق جميعاً ولو اجتمعت أن تطفئ نور الله، وتذكر هنا تأكيد لهذا المعني حادثة طريفة
تناقلها العلماء من صحيفة إلى صحيفة وملخصها؛ أن فرنسا من أجل القضاء على القرآن
في نفوس شباب الجزائر قامت بتجربة عملية، حيث قامت بانتفاء عشر فتيات مسلمات
جزائريات وأدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية وألبستهن الثياب الفرنسية
فأصبحن كالفرنسيات تماماً، وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج
رائعة دعى إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون ولما ابتدأت الحفلة فوجئ الجميع
بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري، فثارت نائرة الصحف
الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين
عاماً؟! فأجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى
من فرنسا (١).

الله أكبر الله أكبر من كل كفور جحود ومن كل عدو لدود، الله أكبر الله أكبر من
كل بأس وبطش، وكل مكرو وكل دهاء.

أنا مسلم والنور ينبض في دمي
أنا مسلم والشمس تألف هامتي

ولسان كل المكرمات لساني
والسائرون بدريها إخواني

نعم أنا مسلم ويا للفخار بهذا الشعار، أنا مسلم ويا للعزة والشرف بهذا الفضل
والشرف!

أنا مسلم أنا مسلم
من أعماق الأعماق

هذا نشيدي الملهم
أبعث لحنه يترنم

(١) هذه الحادثة والمقولات السابقة منتقاة من كتاب «قادة الغرب» يقولون لجلال العالم.

والجوارح والدم
 لأمجادنا تتكلم
 بالرغم ممن يحقدون
 في موكب الحق المبين
 في شدتي قبل الرخاء
 سامقاً نحو السماء
 في الحياة لها فداء
 تجبه صيحات الدماء
 بأنحاء الفضاء
 مناصب الدين العداء

روحي ترده وقلبي
 شوقاً وتحناً
 أنا مسلم أنا مسلم
 أنا هاهنا بشريعتي
 أنا مسلم أنا مسلم
 بعقيدتي القرآن أسمو
 دنياي روحي كل شيء
 إن قال حي على الجهاد
 لو كنت أشلاء ممزقة
 لم آل جُهداً في كفاح

ولله درمن قال:

متألئ القسمات حلو المبسم
 سمع الغفاة الغافلين النوم
 بمسامع الصخر الأمم الأبرم
 هزّ الوجود فيا عروش تحطمي
 دحر الظلام وللضياء تبسم
 يدعوا البرية باسم رب أكرم
 عُميناً وتهديا للصرط الأقوم
 نعم الهداية من كريم منعم
 يهدي خطاها في الكفاح المظلم
 رغم العواصف والذجى لم تحجم
 عصف الطغاق بركبها المتقدم

انشر ضياءك مشرقاً متألّقاً
 وابعث نداءك عالياً واقرع به
 فنـداؤك يخلق هزة
 صوت من البطحاء علوى الصدي
 وتطلعي يا أرض للنور الذي
 هو دعوة للتوحيد رنّ أذانها
 يامن حملت النور تفتح أعيناً
 آتهون أمتك التي أوليتها
 أتضل والقرآن مشعل دريها
 لا لن تذل فهذه راياتها
 ظمأى يحركها نداؤك كلما

أنا مؤمن حطمت آلهة الهوى وبنائي الجبار لم يتحطم
سأظل في درب العلا مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لم تفصم
يا أمة هبط الزمان بمجدها ذلاً وكانت في المقام الأعظم
لا عز إلا بالكتاب يقودنا أكرم بأحسن قائد ومعلم

نعم القرآن هو الأبقى والأكمل والأسمى والأعلى، ومهما دبر الملحدون المهازيل
فلن يبقى إلا القرآن لن يكون إلا كلام الله وهذا وعد الله جلَّ جلاله ومن أوفى بعهده
من الله؟!!

ثامناً - روعة أسلوبه وعظمت تأثيره:

كانت العرب أمة بليغة فصيحة ذات بيان ولغة لا يُشق لهم غبار في ذلك، قالوا
الشعر والنثر فأخذوا بالألباب وهجروا العقول وصار معبدهم في قولهم وفخرهم بقوة
بلاغتهم وبيانهم، كانوا كذلك ولما طلع عليهم صبح الوحي، وأشرق في ديارهم فجر
الحق انبهر كل بليغ وسكت كل فصيح وعجز كل متحدث أمام هذا الجلال والعظمة
التي نزل بها القرآن، إنهم يتقنون الشعر وليس هذا شعراً، هم يبرعون في النثر وليس هذا
نثراً، حاروا فيه وانعجم بليغهم في مقاله ونطق عاقلهم بالحق وقال كلا ليس هذا بقول
بشر كما قال الوليد بن المغيرة.

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم لقد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد
عملته وقرأته وقلته والله لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا
بالسحر ولا بالكهانة (١).

إن صورة نظم القرآن عجيبة وأسلوب القرآن فريد غريب مخالف لأساليب كلام
العرب ومناهج نظمها ونثرها فهو ليس بشعر وليس بنثر ولكنه لون جديد فريد من
البلاغة والبيان لم يعرف له العرب نظيراً في لغتهم قبله ولا بعده، ولا استطاع أحدٌ منهم

(١) «الشفاء» ص [٢٧٦]، ط: دار بن رجب.

مماثلته، بل حارت فيه عقولهم، وعجزت عن محاكاة شيء منه قرائحهم وسوف يظل الخلق جميعاً عاجزين لأن القرآن كلام الله رب العالمين، ولن يجد المخلوق سبيلاً ليقول كلاماً مثل كلام الخالق جَلَّ جلاله، ولما سمع جبير بن مطعم تلاوة القرآن من في رسول الله ﷺ اقشعر جلده وكاد قلبه أن ينخلع من عظمة ما سمع برغم أنه كان على الشرك، ولكن هذه الآيات صدعت الكفر والعناد في قلبه وأشرق فيه نور الإيمان كما في الصحيحين عنه أي جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير للإسلام (١) وفي رواية: وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي.

وعن عتبة بن ربيعة: أنه كلم النبي ﷺ فيما جاءه به من خلاف قومه فتلا عليه: ﴿ حم ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كُنْتُ فُصِّلْتُ آيَاتُهُ. قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۥٓ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١-١٣]، فأمسك عتبة بيده

على في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية: فجعل النبي يقرأ وعتبة مصغ ملف يديه خلف ظهره معتمداً عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقام عتبة لا يدري بم يراجعه ورجع إلى أهله فلم يخرج إلى أهله حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له^(١).

وحكي أن ابن المقفع أراد أن يعارض القرآن وأن يكتب كلاماً يشبهه فمرَّ بصبي يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَهُ أَقْبَلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هؤلا: ٤٤]، فرجع ومحي ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر. وكان من أفصح أهل وقته.

نعم كان أسلوب القرآن جديداً فريداً بديعاً لم يعرف العرب له نظيراً من قبله ولا من بعده. فليس هو بالشعر الذي يبرعون ولا بالثر الذي فيه يمهرون، وإنما هو نوع من الكلام جديد كلهم عن مثله يعجزون.

لقد اجتمعت قريش عند الوليد بن المغيرة يتذاكرون ما يقولون في القرآن وقد رأوا العرب يفتدون إلى مكة في مواسم الحج والتجارة ووجد القرشيون أن أولئك العرب يستمعون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ويأخذ بألبابهم ويسبي عقولهم، فائتمر المؤتمرون كيف يصدون الناس عن القرآن وفي نقاشهم وتحاورهم تري حيرتهم وترددهم ماذا يقولون؟! وترى أنهم لا ينكرون أن القرآن معجز لهم، وأنه فوق كل كلام.

اجتمعوا، ويا لبس ما اجتمعوا له.

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ص [٢٨٤] وضعفه أخونا العلاوي في تحقيق «الشفاء»، ط: دار ابن رجب.

قال لهم الوليد العارف الضال المكذب بالحق في كبر وهو يعلم أنه الحق قال لهم: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً.

قالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن وما هو بزمزمته ولا سجعته.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون ولا بخنفه ولا بوسوسته.

قالوا: نقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر قالوا: فنقول: ساحر قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده قالوا: فما تقول أنت؟ قال ما أنتم بقائلين في هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن كان أقرب القول أنه ساحر فإنه سحر يفرق به المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وجلسوا على السبل يخذرون الناس.

وأما تأثير القرآن في النفوس وأخذه بالألباب والعقول فهو في ذلك فوق كل كلام وأعلى من كل تأثير لأنه كلام العليم الخبير الذي يعلم خبايا النفوس وطواياها. ولم يعرف في تاريخ الدنيا ولن يعرف كتاب غير وجه الأرض وحول مجرى التاريخ، أثر في النفوس كالقرآن العظيم، ذلكم الكتاب جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان، وإيجاز معجز وأقوال محكمة وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبرة في طولها وقصرها وإطنابها الماتع الخلاب وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفأها بالعبرة الناصعة والإشارة الواضحة. القرآن هو الذي جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من بيان حيث أدركوا أنه فوق طاقة البشر وأنه حقائق لا تنكر وبراهين لا تجحد، وحجج لا تدفع قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الجن: ٢٥]، وتأمل كيف أن القرآن صاغ

من العرب أمة ذات قوة وقوام وعزة ونصرة بعد أن كانوا كالفتات المتناثر، وكالغنم المبعثرة في الليلة الشاتية. وجاء القرآن فوحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وجعل من كل واحد منهم أمة كاملة، تندفق من أفواههم ينابيع الهدى وتتهاوى أمام صولاتهم ملوك وممالك، وتنكسر أمامهم شوكة الطغيان والكفر، ويتوارى الظلم، والجهل فزعاً ورعباً من صيحة الحق المدوية وسوف أقف وقفة متأنية مع هذا المعنى في فصل كامل بإذن الله بعنوان القرآن وصياغة النفوس (١). وأريد أن أدلك على مثال واحد يدل على عظمة تأثير القرآن حيث إن المشركين خافوا على أنفسهم أن يؤثر فيهم القرآن؛ ولذلك تواصلوا وتفقوا فيما بينهم ألا يسمعون لهذا القرآن لأنهم رأوا أن من سمعه يتأثر به وبعلو بيانه ووجدوا الناس يؤمنون به واحداً بعد آخر ومنهم كبراء كانوا ذوي مقام ومنزلة ومكانة في قلوبهم وجد المشركون أن الإيمان يقوي ويشدد عوده ويرسخ وجوده وأن الشرك يضعف ويذبل ضرعه. وتجف منابعه فاتفقوا على أن لا يسمعون لهذا القرآن وأن يشغبوا عليه وأن يصرفوا الناس عن سماعه وذلك بالتهريج في القول عند سماعه ولقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فَضَّلَتْ : ٢٦]، هكذا كانوا يفعلون يحدثون المكاء والتصدية والصفير والتخليط والأصوات العالية حتى لا يسمع القرآن فلا يتأثرون به ولا يتأثر به غيرهم ولكن من ذا الذي يمنع الصبح إذا انبلج أو ضوء النهار إذا أشرق؟!

تاسعاً - سلامة القرآن من التناقض والاختلاف:

القرآن وحى الله إلى رسوله، وهو كلامه العظيم الذي أنزله لهداية خلقه، وليس في القرآن أي شيء من اختلاف أو تناقض لا في الأخبار ولا في الأحكام فأخبار القرآن كلها صدق وأحكام القرآن كلها عدل، قال جل جلاله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، فكل ما أخبر الله به حق لا مرية فيه، وكل ما أمر

(١) ذكرت ذلك في فصل الإعجاز التأثري.

به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل من كل وجه فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ومضرة ذلك حكم الله، ولا معقب لحكمه ولا راد لفضله ولا منازع وقدره لأمره.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، فالقرآن هو الحق قول الحق وحق له أن يكون معصوماً محفوظاً من التناقض والاختلاف. وإذا كان كل كتاب يترجم عن قائله ويبين قدره ومكانته فكيف بكتاب الله الحكيم الخبير جَلَّ جَلَّالَهُ؟!!

كلمات القرآن وحروفه وجمل القرآن كلها محفوظة معصومة لن تجد لها تديلاً ولا تحويلاً ولا أحسن منها قياً لا سيما وهو الحق ودليل الإيمان والآية العظمى والمعجزة الكبرى التي نتحدى بها كل ملحد كفور وكل منحرف زائع. وكل من حاول أن يجارب القرآن أو أن ينتقص من قدره لم يجد إلا الفشل ومهانة النفس وخزيها وكان إخفاق كل المحاولين لمعارضة القرآن كسباً جديداً للحق وحجة قوية على المعاندين الناقمين، وبرهاناً مادياً على أن القرآن كلام الله.

وكل كتاب من كتب البشر يخضع للنقد والرد والتعقيب والمقارنة وما سلم كتاب من النقد وعلا فوق كل عيب إلا القرآن، يقول ابن عطية في المحرر الوجيز: وكتاب الله لو نزعته منه لفظة ثم أدير النظر على لفظة أحسن منها لم يوجد، وقامت الحجة على العالم بالعرب إذا كانوا أرباب الفصاحة مظنة المعارضة^(١).

ولو كان في القرآن عيب لغوي واحد لما توان مشركو مكة ومشركو العرب قاطبة عن إبراز هذا العيب والطعن به على القرآن وإظهاره أمام كل أحد لا سيما وهم أشد الناس عداءً للقرآن وأعرف الناس بلغة القرآن وأقدر من غيرهم على استخراج العيب إن وجد ونهدي للمستشرقين الكافرين الذين يحرصون كل الحرص على حرب القرآن

(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (١/٢٧٨).

ولا يرجعون من حربهم له إلا بالخزي والخسران والنداء على أنفسهم بالجهل الفاضح والغباء المستحکم ما بالکم بکتابکم المقدس الذي اعترف المعترفون منكم بأنه يحتوي على آلاف الأخطاء الظاهرة لكل عاقل لقد نشرت مجلة (أوك) في سنة ١٩٥٢ مقالاً بعنوان الحقيقة عن الكتاب المقدس ذكرت فيه أنه في عام ١٧٢٠ قامت هيئة من الخبراء الإنجليز بتقدير عدد الأخطاء في الكتاب المقدس بحوالي عشرين ألف خطأ على الأقل.

فيما رفعت الدراسات الحديثة الرقم إلى خمسين ألف كما جاء في مجلة «اسيقظوا» التي أصدرتها جماعة شهود يهوه في العدد الصادر ص ١٩٥٧ في مقال تحت عنوان: ٥٠٠٠٠ errors in the bip^(١).

عاشراً - سلامة القرآن من المعارضة:

ومعنى ذلك أنه لم يأت أحد من العالمين بمثله لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل قال الله الملك القدوس جل جلاله: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتون بمثله وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه، ووقع كما أخبر الله فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً، وعجزاً عن معارضته وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسموات المطلع على سائر الخفيات الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم الذي لو أن البحر يمدده من بعده سبعة أبحر مداً والأشجار كلها أقلام

(١) انظر: «الرد الجميل» لعبد الغني النفاذ.

لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلمات الله، فكما أنه ليس أحدٌ من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثل شيءٍ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه (١).

إن مشركي العرب مع شدة عدائهم للإسلام وحرصهم على تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن المجيد ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بما لا يحبون وذكر أوثانهم بالتنقيص والعيب إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقولوا مثله ولم يملكوا أمامه إلا الإذعان لبلاغته وقوته، وإن الثابت من ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتي بمثله ولم يعرف ذلك عن أحد منهم قط، وإن كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة فإن ذلك لم يكن إلا في أيام الردة من مسيلمة الكذاب الذي سجل اسمه في التاريخ وارتبط بهذا الوصف ولا يعرف إلا به مسيلمة الكذاب لأن قومه عرفوا كذبه وضحك عقلاؤهم من قوله حتى قال أحدهم: والله إنك لكاذب وإن محمداً لصادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

ويروى في ذلك أنه عرض قوله على عمرو بن العاص حينما كان يومئذ على الشرك قال لعمرو يعرض كلامه الذي يزعم أنه يوحي إليه من عند الله: قال: ياوبر يا وبر لك أذنان وصدر وإنك لتعلم يا عمرو.

فقال عمرو: والله إنك تعلم أنني أعلم أنك كاذب!! وحين نعرض لبعض قوله ترى الركاكة والسفاهة وخفة العقل وخسة المعنى ودناءة المقصد من ذلك قوله: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً والحازبات خبزاً.

ومن ذلك قوله: إن أعطيناك الجماهر فصلّ لربك وجاهر إلى غير ذلك من أقواله التي حكاها عنه من حكاها من المؤرخين ولعلك تلمح في هذا الكلام السفیه أنه ليس من المعارضة في قليل ولا كثير. وأین محاكاة البغاء من فصاحة الإنسان؟! وأین هذه الكلمات السوقية الركيكة من ألفاظ القرآن العظيمة الرفیعة ومعانيه العالية النبيلة؟! وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه؟!

لقد استبان بهذا الجزء الهزيل الذي نقله المؤرخون عن مسيلمة الكذاب مقدار إدراك المشركين لعظمة القرآن إذ يحاولوا وهم الفصحاء البلغاء أن يعارضوا القرآن أو يجاروه لأنهم علموا أنه فوق قدرة البشر وأن من حاول أن يعارضه يكون أضحوكة للعرب وموضع سخرية واستهزاء فكفوا وامتنعوا عجزاً منهم وعلماً بأن هذا لا يكون في قدرة مخلوق. نعم لم يعرف عن العرب كتاب عارضوا فيه القرآن ولم يحفظ عنهم في ذلك شيء عارضوا به كتاب الله وإذا ثبت هذا البرهان العظيم أن أحداً من البشر لا يملك أن يأتي بمثل القرآن، بل لو اجتمع الخلق كلهم واستعانوا بمن شاءوا والعجزوا عن الإتيان بمثله ولهذا نقول: لزاماً على كل عاقل أن يسارع إلى امتثال حكم الله وأمره وأن لا يستكبر عنه أو يصد عنه، فالقرآن - والله هو سر سعادة البشر كلهم لو كانوا يعلمون!! هو سبيل السلام والأمان والنعيم لو كانوا يفقهون!!

إخوتي أحبتي، القرآن هو أكثر كتاب يُقرأ في العالم فهو يُقرأ في المساجد وفي البيوت وفي المدارس والمعاهد والكتاتيب وفي الإذاعات والسيارات، بل وفي التلفاز والجوالات يُقرأ كل يوم ملايين المرات ولا تخلو ساعة من نهار أو لحظة من ليل من تلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه، ونفسيره وتجويده؛ بل حتى أعداء القرآن هم أنفسهم يقرؤونه من أجل التكذيب بها جاء فيه وكان هذا إقامة لحجة الله عليهم ولكن ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الفتح: ٤٦]، نعم ذلك ثابت للقرآن ولم يثبت لغيره،

فالحمد لله على نعمة الهداية إليه ونسأل الله أن يثبتنا على صراطه والاستمسك بأحكامه إنه ولي ذلك ومولاه.

فالقرآن أبقى المعجزات وأبهر الحجج والبيانات فهو:

تنزيل رب العالمين ووحيه	بشهادة الأحرار والرهبان
وكلام ربي لا يجئ بمثله	أحد ولو جمعت له الثقلان
وهو المصون من الأباطل كلها	ومن الزيادة فيه والنقصان
من كان يزعم أن يباري نظمه	ويراه مثل الشعر والهديان
فليأت منه بسورة أو آية	فإذا رأي النظمين يشتبهان
فلينفرد باسم الألوهية وليكن	رب البرية وليقل سبحاني
فإذا تناقض نظمه فليتبسن	ثوب النقيصة صاغراً بهوان
أو فليقر بأنه تنزيل مَنْ	سَمَاه في نص الكتاب مثاني
لا ريب فيه بأنه تنزيله	وبداية التنزيل في رمضان
الله فصله وأحكم آيه	وتلاه تنزيلاً بلا أَلْحَان
هو قوله وكلامه وخطابه	بفصاحة وبلاغه وبيان
هو حكمه هو علمه هو نوره	وصراطه الهادي إلى الرضوان
جمع العلوم دقيقها وجليلها	فيه يصول العالم الرباني
قَصص على خير البرية قِصَّة	رَبِّي فأحسن أيما إحسان
وأبان فيه حلاله وحرامه	ونهى عن الآثام والعصيان

حادي عشر- عظمت ما يدعو القرآن إليه:

القرآن هو حكم الله في خلقه وسبيل سعادتهم الأوحد في الدنيا والآخرة، القرآن يهدي لأقوم الطرق وأعدل الأحكام ما ترك خيراً إلا دعا إليه وأمر به وما ترك شراً إلا نهى عنه وحذر منه ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولم يرد في القرآن ما

يتناقض الفطرة السليمة والأخلاق القويمة والعقول الصحيحة. وما ورد في القرآن أبداً شيء يستنكره ذوي العقول الراجحة السديدة.

ففي القرآن أمرٌ بالصدق: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وفي القرآن أمرٌ بالعدل والإحسان والنهي عن المنكر والفحشاء والبغي قال الله جلَّ جلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الحجرات: ٩٠].

وفي القرآن أمرٌ بالإحسان إلى الوالدين وتوقيرهما والتوضيح لهما وفيه نهى عن عقوق الوالدين والإساءة إليهما بقول أو بعمل قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإنشراح: ٢٣-٢٤].

وفي القرآن أمرٌ بالرحمة الشفقة والمودة والمحبة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البقرة: ١٧]. بل جعل الله عزَّ وجلَّ رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها رحمة للخلق كافة قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الانبيا: ١٠٧] في القرآن أمرٌ بالاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والاختلاف وبين ربنا سبحانه أن كثرة الاختلاف والتنازع تؤدي إلى ضعف القوة والفضل في تحقيق الأهداف المنشودة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَأَعِصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [العنكب: ١٠٣]؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الانشراك: ٤٦] أي قوتكم.

وفي القرآن أمرٌ بالعبادات التي تطهر القلب وتزكي النفس ونهى عن المعاصي والسيئات التي تعمي القلوب وتحول الإنسان إلى حيونا في مسلاخ بشر تمسخ آدميته وتذهب مروءته.

فالصلاة صلة بين العبد وربّه تزيد إيمانه وتقوي يقينه وتذهب من نفسه الحيرة والتردد والنكد والضيق والظلمة وتثبت في قلبه الاطمئنان والسكينة والسعادة؛ والزكاة تطهر النفس من البخل والشح وتعالج أمراضاً اجتماعية كالتحاسد والسرقة وذلك بأن يعطي الفقير من مال الأغنياء ما يكفيه عن السؤال والذلة للخلق.

وفي الصيام تقوية المراقبة لله وتحقيق التقوي في القلوب والشعور بجوع الجائعين وفقير المحتاجين.

وفي الحج تربية على الاستسلام لحكم الله والمشاركة لتنفيذ أمره وهجر البلاد والمأكولات والعادات تقرباً إلى الله جلّ جلاله. ومن قبل ذلك كله أمر القرآن بتوحيد الله يصرف العبادات كلها إليه وحذر من الشرك وبين خطره وعاقبته وهذه أخطر وأهم وأعظم قضية في الوجود كله وبها أرسل كل الرسل وبعث كل الأنبياء ومن أجلها جاهدوا وصبروا قال الملك الحق جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الْحَجَّال: ٣٦]. هذه هي قضية كل نبي ومهمة كل رسول جاء من عند الله ألا وهي الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده والنهي عن صرف أي عبادة من العبادات لغير الله جلّ جلاله.

وفي القرآن تحريم وتجريم كل السيئات والقبايح فقد حرم الله في كتابه الربا والزنا والظلم وقطع الطريق والكذب وفحش القول وغير ذلك من المنكرات التي أمر الله في كتابه باجتنابها والبعد عنها.

نعم لقد دعا القرآن إلى كل ما فيه خير أو صلاح في الدنيا والآخرة، وينهى عن كل سوء سفيه فساد الدنيا والآخرة، كل ما دعا إليه القرآن حق وعدل وحكمة ورحمة وكل ما نهى عنه القرآن ظلم وزور وباطل وضلال.

وفي القرآن قصص الأنبياء السابقين الذين أبقى الله ذكرهم أسوة للعالمين وقدوة للمهتدين وغير ذلك كثير من تعاليم القرآن المعصومة المحكمة الكاملة

وهكذا كان القرآن كاملاً ليس فيه ذرة خلل وليس فيه مجال لتعقيب أو تعديل وصدق ربي إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الأنعام: ٩]. طالع القرآن ورتل القرآن ترى النبل والسامحة والعظمة والعصمة، والحق والصدق، والنور والهداية، والبلاغة والبيان، والحجة والبرهان، والتوحيد والاستقامة تجد كل خير وبر وحق وعدل وحكمة.

ثاني عشر- سهولة حفظه وفهمه:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القصص: ٣٢]، أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس كما قال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ بِمَبْرُكٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَيُذَكِّرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [يس: ٩٧] قال مجاهد: ﴿ وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القصص: ٣٢]، يعني هونا قراءته وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. قال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسره الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرطبي: فهل من منزجر عن المعاصي؟^(١)

يقول إبراهيم خليل في كتابه لماذا أسلم صديقي: قلت له: هل يحفظ أحد في الدنيا الكتاب المقدس عن ظهر قلب؟ قال: لا قلت: وهذا أمرٌ عجيب فهذا الكتاب المقدس الذي يؤمن به الملايين من البشر لا يوجد أحد على ظهر الأرض يحفظه في حين أنك تجد الملايين يحفظون القرآن ويستظرونه عن ظهر قلب^(٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٦٧/٧) ط: التوفيقية.

(٢) «لماذا أسلم صديقي؟» للدكتور/ إبراهيم خليل ص [١٣٥] ط: مكتبة التراث بالقاهرة.

وبعد،

فهذه بعض دلائل عظمة القرآن ولو استقصينا لذكرنا ضعف ما ذكرنا ثم خفى علينا أكثر مما علمنا لأنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يعلم مقدار عظمته وجلاله ووجوه ذلك كاملة إلا الله جل جلاله ولعل فيما ذكرنا كفاية لمن أراد الهدية وتذكرة لمن أراد التذكرة. ومن قال قولاً، بلا برهان فقولته ظاهر البطلان والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وبحمده.

